

المثقف الديني التقليدي في المغرب ومفهوم المعرفة

صوبم زربية

الفرنسيون بدورهم إلى هؤلاء الآخرين بعد اقرارهم نظام الحماية في المغرب سنة ١١١٢هـ، ففي النصف الأول من الوجود الفرنسي في المغرب، كان العلماء يكادون يشكلون الفئة الوحيدة التي تمتلك معرفة قوية باللغة العربية، ولولا تعاون قسم منهم مع النظام الاستعماري، كما يقول المؤلف، لما كان باستطاعة السلطات الفرنسية توسيع مجال ادارتها بسرعة في البوادي وايصال أجزتها الجبائية إليها.

ولتسليط الضوء على دور المثقف الديني التقليدي في المجتمع وفي صياغة المفاهيم الدينية والسياسية السائدة في بيئته، يعتمد إيكلمان إلى كتابة السيرة الإجتماعية لأحد قضاة البادية وبالضبط منقطة "أبي الجعد" بعد أن قضى أكثر من سنتين في صحبة ملازمة لهذا القاضي، وأجرى معه حوارات مطولة، وتابع أعماله في مجال القضاء، وأطلع على مذكراته، وسمع منه أخبار منطقة أبي الجعد، ومناطق أخرى في المغرب.

عن مركز "طارق بن زياد للدراسات والأبحاث" ومؤسسة "عبور"، الترجمة العربية لكتاب "المعرفة والسلطة في المغرب" للباحث الأنثروبولوجي الأميركي ديل إف. إيكلمان، الذي صدر عام ١٩٨٥ باللغة الإنجليزية، بعد سلسلة من الأبحاث الميدانية قام بها الباحث على مدى ست عشرة سنة في مناطق مختلفة من المغرب في المرحلة ما بين ١٩٦٨ حتى ١٩٨٤. والكتاب الذي يقع في ٣٠٦ صفحات يتناول موضوع التعليم الديني ومفهوم المعرفة المرتبط به. ويعزو أهميته إلى كون دراسة دور العلماء في تاريخ المغرب القريب تثير قضايا أساسية تتعلق بمسؤوليتهم السياسية وبالعلاقة بين أنساق المعرفة وأشكال الهيمنة السياسية والاقتصادية.

فعلى غرار سلاطين المغرب في أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الذين كانوا يلجأون إلى العلماء كلما كانت الضرورة تدعو لتوسيع نفوذ المخزون ومجال نشاطه، عمد

ويبرر إيكلمان اختياره للسيرة الاجتماعية التي يطلق عليها بعض الأنثروبولوجيين "تواريخ حياة الأفراد" لكونها أكثر قرباً من المعلومات الخام منها إلى الكتابات التحليلية، ذلك أن التمييز بين الوثيقة الحكائية والوثيقة الاجتماعية غير واضح في أغلب الأحيان، ورغم هذا، فإن الوثيقة الاجتماعية يمكن أن تكون وسيلة فعالة لاستكشاف مواقع غير معروفة بدقة، إن هي استغلت كأداة للتحليل. كما أن طبيعة المجتمع المغربي ذي التركيبة المعقدة، جعلت عدداً مهماً من الباحثين أمثال جاك بيرك وجيلفورد جيرترز وواثر بيري وجون لاکوتير يعتمدون على السيرة الاجتماعية، أو البيوغرافية لفهم مظاهر الواقع السياسي والاجتماعي للمغرب، وهي الدراسات التي مازالت معتمدة لحد الآن للتعريف بفترة ما قبل الاستعمار وفترة الحماية.

وعن مميزات هذه الدراسة-السيرة يقول إيكلمان: "جل الدراسات المتعلقة بالإسلام اهتمت منذ الثورة الإيرانية،

بالصحة الإسلامية والحركات الأصولية بيد أن الدراسة التي نقترحها في هذا الكتاب تعطي بدلاً يركز على وجهات نظر إسلامية أخرى تحظى بالمساندة الشعبية وتشكل في ذات الوقت قسماً من الخلفية التي يمكن خلالها فهم الآراء الإسلامية المتطرفة بصورة أفضل، كما تهدف هذه الدراسة إلى إغناء الدراسات الخاصة بالتعليم الإسلامي في مراحلها التاريخية المبكرة والمركزة أساساً على تطور المؤسسات التعليمية ودور العلماء في الحواضر الإسلامية".

وتسعى الدراسة في مستوى آخر إلى تحدى النظرة التقليدية للدراسات الإسلامية ودراسات العالم الثالث عموماً، تلك التي ترى بأن المثقفين "التقليديين" يشكلون فئة اجتماعية تتدهور أهميتها في الحياة السياسية والثقافية المعاصرة، هذه النظرة التي كرسها معظم الباحثين المغربيين الذين عملوا على التقليل من شأن حيوية التعليم الديني في العصر الراهن.